

الإيكولوجيا: الأسطورة والواقع

د. علي بوشنيخي
جامعة سيدي بلعباس

لقد أثارت الطبيعة مخاوف الإنسان الأول، وأدهشته وطرح العديد من التساؤلات، وبحث عن التفسيرات فقاده خياله إلى الاعتقاد بوجود كائنات عديدة تملأ الكون تحكمه وتسيطر عليه وتتحكم فيه و تخضعه لمشيئتها وإرادتها فالبيئة الاجتماعية تتكون إذن من البيئة الأساسية المادية التي شيدها الإنسان، ومن النظم الاجتماعية و من المؤسسات التي أقامها فهي الطريقة التي نظمت بها المجتمعات البشرية حياتها و التي غيرت البيئة الطبيعية لخدمة حاجات الإنسانية. إن الحياة الطبيعية لذلك الإنسان أتاحت له فرصة التأمل في مظاهر الطبيعة وتمييز قواها وعناصرها و خصائصها ونظامها، كما لفتت انتباهه التغيرات الجوية وتأثيراتها المختلفة في مظاهر عالم الأرض والسماء، مما طرح أمامه سلسلة غير متناهية من الأسئلة المختلفة المتعلقة بالبداية، والخالق والمخلوق

و الكون والكائن، الوجود والوجود، فأخذ ذلك الإنسان يحاول الفهم والتفسير ضمن حدود إمكانياته، الفكرية وقدراته العقلية مستغرقا في آفاق التأملات وعالم البحث والتطلعات " فتصور أن كل ما في الكون ينبض بالحياة وأن لكل منها قصة أسطورية تصور العالم مملوءا بالآلهة المتجسدة في قوى الطبيعة ومظاهرها

المختل (1).

فاعمل الطقس يؤثر في مزاج الإنسان و يقيس مدى قوته وضعفه في طريقة تفكيره فمعروف أن الحرارة تؤثر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على الحياة الإنسانية فالمناطق المعتدلة هي التي تكثر فيها التجمعات البشرية و يقام فيها العمران و تزدهر فيها الحضارة و ذلك يكون سببا في رقي أهلها و توفر شروط الحضارة فيهم بالإضافة إلى ذلك أنهم يكتملون من حيث الخلق (يفتح الخاء) والخلق (بضم الخاء) خلقهم. المحيط الجغرافي والطبيعي من مناخ وموقع وغيرهما له تأثير فعال في حياة الأفراد و من ثم في حياة الجماعة والظواهر التي تخلفها هي نتيجة لنشاط الأفراد الذين يكونون المجتمع، وللمناخ دور كبير في اختلاف وتباين الأمزجة وذلك يكشف لنا حتما إلى طبائع آداب، عادات و تقاليد الشعوب من منطقة لأخرى فالطبيعية والإنسان كل متفاعل يؤثر الواحد في الآخر.

ولقد حضيت الأسطورة باهتمام بالغ في التفكير الوجودي لان مشكلة عثور الإنسان على هوية لنفسه هي مشكلة كامنة في فصميم الوجود نفسه حسب تعبير جون ماكوري الوجودية، واختلف التفكير الأسطوري من عصر لآخر فعند المصريين القدماءى بدا عندما آخذوا بالزراعة الدورية المنظمة حسب الفصول، ورأوا الكون انه نشأ من الماء (نهر النيل)، وظلت الأسطورة المبنية على الشعائر والطقوس الدينية متجلية في مختلف أنماط تفكير المجتمع الهندي القديم ولازال، وهو الشيء نفسه في الصين القديمة (بحكم النسق الاجتماعي والنسق الايكولوجي والنسق الديني) من خلال فلسفة كونفشيوس معتبرا أن الشعائر الدينية والطقوس هي أساس النظام الكوني، هذا الفكر الذي كان وليد التصورات الطبيعية القديمة التي نشأت عن تقلب الليل والنهار وفقا لنظام "الطاو"، وفي اليونان القديمة تعتبر الأساطير الإلهامات الأولية لميلاد الفلسفة اليونانية، هذا ما تبرزه أساطير هزيود، وهوميروس... كما كانت الأسطورة أيضا حاضرة في الفكر العربي القديم من خلال تعابير الشمس والريبع، وعبدوا القمر والكواكب وعلى ضوء هذه الوقفة التاريخية للأصول التاريخية للأسطورة يمكننا القول أن الأسطورة ظهرت من اجل تفسير الكون وطبيعته وتبحث عن مصير الإنسان المجهول فكان يصارع من اجل كشف الغموض وفك الألغاز والأسرار الطبيعية. يتحدث العلامة ابن خلدون عن تأثير العوامل الجغرافية على الحياة الإنسانية فيقول: "إن المعمور من هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه لإفراط الحر في الجنوب منه و البرد في الشمال و لما كان الجانبان من الشمال و الجنوب متضادين في الحر و البرد و جب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلا.... فلهذا كانت العلوم و الصناعة و المباني و الملابس و الأقوات و الفواكه بل و الحيوانات و جميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال، و سكانها من البشر اعدل أجساما و ألوانا و أخلاقا و أديانا، حتى النبوات فإنها توجد في الأكثر فيها، لم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية و الشمالية و ذلك أن الأنبياء و الرسل إنما يختص بهم إكمال النوع في خلقهم و أخلاقهم". (2)

وحسب رأي محمد الخطيب أن التفكير الأسطوري بدا يبرز للوجود لحظة ازدياد حدة التأثير وازدياد حدة العلاقة بين الإنسان وذاته وبينه وبين الطبيعة، فهو حسب رأيه هذا التفكير ما هو إلا رد فعل ذهني تلقائي، على كافة التساؤلات التي أثارها الوجود البشري (3). لقد واجه الإنسان الأول أفكار القدر المحترم و المصير العسير، و دور المفاجآت في تغيير الوقائع، وكان مفهوم الحظ من المفاهيم التي ظهرت في خيلة، فراح

يجسدها في صور إنسانية و يمنحها كل الاحترام وتقديس وينسب إليها أسباب النجاح وعوامل الفشل في مختلف ميادين الحياة ، و قد تصورها في صورة امرأة معصوبة العينين و ذلك إشارة إلى قيامها بمنح السعادة بشكل اعتباطي وفجائي "

كما لا يمكن فصل المعطى الجغرافي الطبيعي عن الأدوات والآلات والوسائل التقنية التي تتوفر للجماعات الإنسانية من استعماله وتحويله لها ، بحيث يترتب عن وجود الإنسان في هذا النسق الايكولوجي ظهور أنماط و أساليب للتفكير والعمل تهدف إلى استغلال العناصر الطبيعية ، وتحسين الوسائل و تطويرها لتصبح هذه الأساليب و الأنماط قاعدة التراث الثقافي ، و الأصول الأولى لمقومات الحضارة التي تبلور من أجلها التشريعات و القوانين ، والتي تنعكس في نظم لتقسيم العمل و توزيع الاختصاصات و تنوع الوظائف التي يتعين على أعضاء المجتمع القيام بها في نوع من التكامل و التنظيم ، مما يحقق الثبات و الاستمرار في بناء المجتمع و ينسق العلاقات التي تقوم بين

الأشخاص و الجماعات (5). و في حدود التصورات للظروف الايكولوجية أو النسق الإيكولوجي (écosystème) الذي يعتبر الإنسان جزءا من هذا النسق ، تدرس الإيكولوجية الوسائل التي من خلالها تتفاعل

كل الكائنات الحية داخل البيئة كما تدرس علاقات تأثير الكائنات مع وسط الذي تعيش فيه . (6)
يرتبط المجتمع الإنساني ارتباطا وثيقا من خلال عملية تبادلية للمواد الإنتاجية و الاستهلاكية حيث تمده البيئة الطبيعية بكل العناصر والظروف الملائمة لاستمراره و يحصل الإنسان على هذه المستلزمات عن طريق استخدام أعضاء جسمية بدون وسيط خارجي التي يترتب عليها شكل معين من العلاقة بين الإنسان بوسائله التكنولوجية و البيئة الطبيعية و ما تفرضه تلك البيئة الطبيعية من أنماط معينة من العلاقات بين الأشخاص و الجماعات في المجتمع ، و ما يحيط استثماراتها من قيم و معتقدات ، و اثر ذلك في تكوين أنساقها السياسية و نجد في هذا أن الظروف الايكولوجية تلعب دورا على درجة عالية من الأهمية في تشكيل فكر أسطوري و بناء مجتمع واقعي و في تكوين بناء سياسي خاصة في المجتمعات القبلية ، كما هو الحال لدى مجتمع طوارق الاهقار (أساطير الهقار) .

هذه الأسطورة ، الظاهرة الإنسانية والثقافية والتي تروي تاريخا وحدثا تم في زمن غير الزمن الحالي و تتمتع بسلطة عظيمة على عقول الناس و نفوسهم ، والاعتقاد فيها و تحولت إلى حقيقة يؤمن بها الأفراد ، وأصبحت مصدرا ينتج العلاقات الاجتماعية والنظم الثقافية حيث تحظى بالاحترام والقداسة .

لقد ركزوا الانثروبولوجيون الأوائل على عملية التكيف البشري مع البيئة الطبيعية وأجابوا عن الكيفية التي قامت بها عناصر الثقافة داخل بيئة ثقافية وطبيعية معينة، وعن أهم العناصر التي ساعدت الإنسان على اكتشاف بيئته من اجل إشباع حاجاته الأساسية من الطعام والمأوى، وان حسب رأيهم كلما تطورت الأدوات المستخدمة التي ابتكروها كلما صارت قدرة الإنسان على استغلال بيئته الطبيعية بدرجة أكثر كفاءة (7)، حيث ترتبط ممارسة الأنشطة الاقتصادية بالدورة الايكولوجية حيث أنهم يقسمون السنة الى فترات تعرف بالمواسم هذا النشاط الذي ينحصر في فصل الشتاء في صناعة الجبن والسمن المستخرج من ألبان الأغنام وصناعة بعض الأدوات اللازمة لنقل المياه من جلود الحيوانات . فالواقع في الأسطورة حسب أحمد كمال زكي " قد يبدو خارقا، إلا أنه يظل شيئا قام حقيقة، ويظل في الوقت نفسه يحكي تاريخا مقدسا، و يصور مواقع تضرب في العصور الخرافية معانقة إله أو كائنا أو مفكرا حاول أن يفسر ظواهر الطبيعة ويضع أوليات المعرفة " (8).

و جاء في تعريف الأسطورة " إنها حكاية إله أو كائن خارق، تفسر بمنطق الإنسان البدائي ظواهر الحياة والطبيعة والكون والنظام الاجتماعي، وأوليات المعرفة، وهي ترجع في تفسيرها إلى التشخيص والتمثيل والتحليل، وتستوعب الكلمة والحركة والإشارة والإيقاع، وقد تستوعب تشكيل المادة، وعند الإنسان البدائي عقيدة لها طقوسها " (9).

فالأسطورة هي محاولة لفهم الكون بظواهره المتعددة أو هي تفسير له، إنها إنتاج وليد الخيال، ولكنها لا تخلو من منطق معين ومن فلسفة أولية، وعلى هذا فإن الأسطورة الكونية شأنها شأن الفلسفة تتكون في أولى مراحلها عن طريق التأمل في ظواهر الكون المتعددة والتأمل ينجم عنه التعجب كما أن التعجب ينجم عنه التساؤل، فإذا تساءل الإنسان، طلب الإجابة في إصرار عن سؤاله، حتى إذا وجد الجواب سؤاله قرت نفسه، لأن الإجابة حيثئذ تكون حاسمة بالنسبة إليه، فإذا تمثل الكون للإنسان بهذه الوسيلة عن طريق السؤال والجواب فإنه يتكون بذلك شكل تسمية الأسطورة الكونية 3، الأسطورة إذن تجسد خيال ذلك الإنسان البدائي وتمثل فكره وتدل على أولى محاولاته في فهم القوى الطبيعية المختلفة التي تأمل الإنسان فيها طويلا محاولا تعليلها وتفسيرها وشرحها وتبريرها فترأت له في لحظات كالغيوبة أفكار توار اثنها الأجيال المتعاقبة .

إن العوارض البيئية والاجتماعية نحتت مع زمن المخيلات الإنسانية لتهيئها إلى تقبل الأسطورة أولاً ثم إلى التشبث بها كحقيقة من حقائق الوجود والبحث الدءوب عن هوية والدفاع المستميت عنها هو الذي فجر إبداع الأساطير وبخاصة أساطير التكوين. ويظهر الإنسان ككائن اجتماعي داخل جماعة معينة هدفها تحقيق أقصى إشباع ممكن لاحتياجاته عن طريق العملية الإنتاجية، ويستخدم في دوراته الطبيعية دون فصلها عن البيئة الطبيعية. ففي المناطق الجبلية كما هو مثلاً الحال عند طوارق الاهقار ارتبطت الأسطورة لدى هذه القبائل بالجبال (سلسلة جبال الأتاكور بتمنراست توجد بها أعلى قمة جبلية في الجزائر قمة طاهات) وأصبح تفسير الظواهر الطبيعية بالأساطير حيث كل جبل يحمل أسطورة، فللجبل قيمة خاصة في هذا المجتمع المحلي فهو ليس مجرد جبل بل يرمز تارة إلى الحكمة والخلود، وفي مسار التكوين القدسي، تعتبر الأسطورة الجبل أحد محاور الكون، والأداة التي تسمح لإنسان الأرض الاتصال بالكائن أو بالكائنات العليا، فهل معنى هذا أن الجبال تستمد قداستها من ارتفاعها مثلاً؟ يعتبر الإنسان الأسطوري أن جبله - هو بالذات - أكثر ارتفاعاً (حتى إذا لم يكن كذلك جغرافياً) من جبال الآخرين، وهو بالتالي أقرب ما يكون إلى السماء. (10) كانت الأسطورة العربية تعبير أن الأماكن المقدسة هي في أعلى مرتفعات العالم (عالمها طبعاً)، وأن جبل أبي فبيس في الحجاز ليس جبلاً عادياً: أنه مسئول، ناطق أمين مقدس، وهذه الحكاية الأسطورية تكشف لنا سر الجبل وخروج الحجر الأسود منه (الحجر المقدس بدوره كما سنرى): "بينما إبراهيم يبني البيت إد ناداه جبل أبي فبيس: يا إبراهيم أن لك عندي وديعة فخذها، فلما دنا منه انشق الجبل وخرج منه الحجر الأسود". كما أن الجبل يتحول إلى شيء ثمين ومقدس لمجرد أن يلامسه كائن قدسي: "ولما صعد موسى الجبل لمناجاة ربه، صار عقيفاً، فلما نزل موسى عاد إلى حالته الأولى". ارتبطت الأسطورة أيضاً بالتاريخ فالأسطورة والتاريخ ينشأن عن التوق إلى معرفة أصل الحاضر فهي وسيلة يفهم الإنسان من خلالها نفسه ويعي شرطه (11)، فتوقنا الآن لقراءة وفهم التاريخ عن ذات الموقف القديم الذي كان يدفع أسلافنا لتلاوة الأساطير والاستماع إليها. أما الصلة بين الأسطورة والتاريخ فهي قوية جداً فالمادة الأسطورية مصدر هام للمادة التاريخية، ولفهم حقيقة العالم القديم، فقد كانت الأسطورة هي الوعاء الذي وضع فيه الإنسان القديم خلاصة فكره وأحداث حياته ومضمون حركته. إن العوارض البيئية والاجتماعية نحتت مع الزمن المخيلات الإنسانية لتهيئها إلى تقبل الأسطورة. أولاً ثم إلى التشبث بها حقيقة من حقائق الوجود والبحث الدءوب عن هوية والدفاع المستميت عنها هو الذي فجر إبداع الأساطير وبخاصة أساطير التكوين، لاشك أن الأسطورة من حيث هي فلسفة كشف يصبح عن

طريقها الكون معروفا لدى الإنسان ، هي أشبه بالنبوءة عند الإغريق ، إذ أنها تنتمي إلى مجال واحد من الاهتمام الروحي الشعبي ، يدفع الإنسان إلى طلب المعرفة ، و إلى الإجابة الفاصلة عما يجهله ، و الفرق بين النبوءة و الأسطورة تختص بالظواهر الكونية " (12)

فالأسطورة رمز للتفكير والتساؤل فهي تعبير واسع عن علاقة الإنسان بمحيطه، بحيث حاول الإنسان الأول لفهم هذه الظواهر الطبيعية، هذه الأساطير التي تحولت مع مرور الزمن إلى معتقدات فكرية تتحدث عن أصل العالم. فهي تعبير عن نظرة الإنسان البدائي لما وراء الطبيعة، بحيث وقف الإنسان عاجزا عن تحليل أسرار الطبيعة، فكانت بالنسبة للإنسان الأول واقع معاش، يعكس البيئة المعاشة. فالأسطورة عند ليفي ستراوس هي عنصر أساسي مكون للفكر الإنساني قديمه وحديثه. فهي تاريخ الإنسان والكون معا، وعند فراس السواح هي حكاية مقدسة ذات مضمون عميق يشف عن معاني ذات صلة بالكون والوجود وحيلة الإنسان، فهي قصة خرافية لها تصور شامل عن العالم وعن مكانة الإنسان (13).

ترتبط جميع الكائنات الحية ارتباطا وثيقا بالبيئة الطبيعية بها في ذلك النباتات، وتشكل طبيعة المجتمعات الصحراوية وفقا للموارد الطبيعية المتاحة لها، كمجتمع الطوارق المتميز بعدم الاستقرار، هذا المجتمع الذي له نمط خاص يميزه عن المناطق الأخرى في الجزائر فهو مجتمع متناسك، حيث يقوم بين هؤلاء الرجال المثلثين نوعا من التخطيط أو النسق، حيث جاع في بعض تفسير الأسطورة، أنها تستند بدرجة كبيرة على الواقع الملموس فكان اليقين "بأن الآلهة هم في الأصل فئة من الملوك، بلغوا من القوة والتأثير جعل الناس ترتفع بهم فوق حدود الواقع إلى عالم الخارقة ثم تؤلههم" (14).

يترجم هذا الموقف أن الأسطورة على الرغم مما تحتويه من عنصر الخرافة، تصبح في مجمل الموقف الذي تفرضه ومن خلال شخصيات تنوء بجمل هذا الموقف أكثر فعالية في الكشف عن الوضع الإنساني في مرحلة من المراحل "إنها تعكس أعمالا وأفكارا ومؤسسات كانت في وقت ما من الماضي" (15). إن انعزال المنطقة جغرافيا و الظروف الطبيعية القاسية هي التي أدت إلى ديمومة التراكبات الاجتماعية و الثقافية الرمزية التي أفرزتها تلك العلاقات و التي كونت المخيال الجماعي ، فعدم تفكيك البنية الاجتماعية هي التي كانت أساس استمرارية هذا التراث الثقافي . فالأسطورة ما هي إلا وسيلة من وسائل صراع الإنسان مع المحيط الطبيعي و الاجتماعي والتكيف معه من أجل بقاءه

و استمراره في الحياة. لذلك خلق رجل الالهة صورة أقرب إلى الطبيعة منها إلى الصورة الواقعية أي الصورة التي تنبثق من المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه.

إن هناك علاقة جدلية بين الأسطورة و الطبيعة، وعلاقة دائمة و مستمرة بالمحيط الاجتماعي و النفسي الذي دفع هؤلاء إلى إنتاج هذه الأساطير لأنها تتأثر بها و تؤثر فيها، فهي جزء من البنية الأساسية من الفكر الإنساني . إن تصورات المجتمع التاريخي لا تحمل في ذاتها الصراع و التنافس إنما علاقة ميكانيكية تتحكم فيه مواقف و ممارسات الشخصية الرمزية الأسطورية . إن هذا الاعتقاد هو الذي حقق مسألة استمرارية هذه الثقافة السياسية و ارتسمت عبر مجال المخيال الجماعي للأفراد خاصة التنشئة الأسطورية المبنية على شروط القوى الغيبية الراضة للإدارة التدخل الإنساني كطرف فاعل قادر على التأثير على عناصر محيطه العام ، فغياب الماضي يؤدي إلى فقدان المجتمع لمصدر و مؤشر تحقيق هويته و انتمائه الاجتماعي كما أنه يؤدي إلى فقدان عامل التواصل و الاتصال .

الإحالات :

- 1- صلاح أبو فلح، الأسطورة، مدار حفص تونس، ص 27.
- 2- مقدمة ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص 141، 1986.
- 3- محمد، الخطيب، الفكر الإغريقي، منشورات دار علاء الدين، ط 1، 1999، ص 12.
- 4- بشير، زهدي، مقدمة في الميثولوجيا، عالم المعرفة، عدد 46، ص 22.
- 5- مصطفى، الخشاب، الاجتماع المصري - القاهرة، ص 31، 1982.
- 6- عجيب، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها - دار الفرائي، بيروت 1994 ص 97.
- 7- محمد، حسن غامري: مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة علم الإنسان د.م.ج. الجزائر، 1991، ص 45.
- 8- محمد، عجيب، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها - دار الفرائي، بيروت 1994 ص 97.
- 9- أحمد كمال، زكي، الأساطير، دراسة حضارية مقارنة، بيروت لبنان، ص 123، 1979.
- 10- صلاح، أبو فلح - الأسطورة - مرجع سابق 29 .
- 11- ABD Elrahim, Lamchil, Algérie en crise, éd Harmattan, 1991, P. 183
- 12- مليسيا، إلياذ - الأسطورة في القرنين التاسع عشر دار الطليعة للطباعة و النشر ط 3 - 1986 - ص 40.
- 13- فراس، السواح، الأسطورة والمعنى، دراسة في الميثولوجيا، دار علاء الدين 1997، ص 14.
- 14- أحمد، أبو زيد، الرمز و الأسطورة و البناء الاجتماعي، عالم الفكر، ع 3، ص 19-20.
- 15- أحمد كمال، زكي الأساطير دراسة حضارية المرجع السابق، ص 127